عنوان المحاضرة التاسعة :

السرد في أدب الرحلة

عنوان المحاضرة التاسعة : السرد في أدب الرحلة

مماهو معلوم أن الرحلة فيها مشقة في السفر والانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق غايات دينية أو علمية أو تجارية أو للمتعة ،ولقد ظهرت الرحلة منذ القديم ، ولكن تدوين الرحلات جاء متأخرًا .

1-مفهوم أدب الرحلة:

يُطلق أدب الرحلة على مجموع الكتابات ذات علاقة بحدث الرحلة وأهدافها، والمعنى الذي يلصق بها،ونصوص الرحلات ذات طبيعة وأشكال مختلفة ،وكما أن موضوعاتها متنوعة».

دخل أدب الرحلة في مجال فنون الأدب؛لأن الرحالة ينفعل ويتأثر ويصف، فيصور لنا ذلك من خلال عمله الأدبي ، وهنا نشير إلى أن نص الرحلة تتجاذبه علوم ومجالات كثيرة مثل: الأدب وعلم الجغرافيا والتاريخ والفلسفة .

2-نشأة أدب الرحلة وتطوره :

ظهرت تدوين الرحلات متأخرًا ،ومن بين أقدم كتب الرحلات هي التي قام أصحابها بتناول تصوير حياة الشعوب،ونقد أحوالها الاجتماعية«وأصبح من غير الممكن الحديث عن أدب الرحلة دون استحضار جهود ابن بطوطة وابن جبير والعبدري وغيرهم،وإذا كان ابن بطوطة قد شكل الحلقة المتميزة في الرحلات لما تميزت به رحلته من خصوصيات واتساع على مستوى الفضاءات، التي عبرها وأجاد في وصفها،وما تضمنته من تقاطع بين الواقع والتخييل،فإن النماذج الأخرى لاتقل أهمية عن رحلة ابن بطوطة وتتقاطع معها في موضوعات وصفية وسردية متعددة».

3- طرق تدوين الرحلة :

اتبع الرحالة العرب طرائق عدّة في تدوين رحلاتهم يمكن أن نصفها وفق الآتي:

أ-رحل كتبهاأصحابها في أثناء الرحلة :سلك العبدري هذه الطريقة.

ب-رحل كتبت من المذكرات التي دونها أصحابها في أثناء الرحلة :مثل ماقام به ابن رُشيد الفهري السبتي

ج-رحل دونت من الذاكرة:فكان الرحالة يقصون مشاهداتهم على الناس عند عودتهم،ويدونون بعضها في ملاحظات ومن هذا النوع رحلة ابن بطوطة التي دونها الكاتب ابن جُزي ،وهنا تعددت طرق تدوين الرحلات حسب الظروف التي عاشها الرحالة،والغاية المنشودة من رحلته ،وأيضًا ارتبط تدوين الرحلة بزمن الرحلة ونمط سرد أحداثها».

يعد النوع الثالث هو الأشهر ، فالرحالة هو شخص سرد ماشاهده وعاشه ،وظهر ذلك بوضوح عند ابن بطوطة في رحلته المعروفة باسم "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

4-شعرية السرد في كتب الرحلات:

إن الرحالة الأديب يصوغ مادة قصصه من خياله الخصب ،يعرضها في أسلوب أدبي خاص «وتتسم كتب الرحلات بعدد من السمات المشتركة مثل: الشمول والتنوع،وكذلك فإنها تعنى بالوصف الدقيق،والتصوير الأمين والنقل الصادق، بدافع تحري الدقة تحريًا علميًا موضوعيًا،إذ إن منهم من لم يقبل الأخبار دون غربلة، أو دون التأكد من صحتها،فالتعبير السردي نتاج تأمل مُستمر للنهاية يتضمن في طياته الرغبة في الإنهاء السريع لصيرورته ذلك أن القضية لاتتعلق هنا برحلة انتهت في الوقت الذي بدأت فيه،أو برحلة

انتهت قبل أن تبدأ،وإنما برحلة بدأت في الوقت الذي انتهت فيه؛ أي لايمكن تصور البداية من دون تضمنها نهايتها، ولو أخذنا الأسلوب السردي الذي وصف به كل من المسعودي والقزويني أهل الشمال،وتحديدًا الروم والإفرنجة لوجدنا أنه يقوم على نوع الثنائية التفاضلية،وهي ثنائية تنتظم في مستويين خاص وعام».

إن أسلوب المسعودي (ت346هـ) في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" واضح متنوع،يقوده الطبع حينًا،ويشده الصنيع أحيانًا،وكسائر كتب الرحلات ليس فيه دائمًا حقائق راهنة،فقد يشوبه الاضطراب ويفوته التنقيب العلمي،وينقل الخبر مكتفيًا بإسناده إلى الرواة،وكثيرًا ماينقاد المسعودي باستطراداته إلى الانقطاع عن مجرى التاريخ الصحيح،فتقوده اللفظة إلى أقوال لاتنتظم والسرد العلمي الخالص،بيد أن المسعودي يعرف كيف يخلق جو الحادثة المشوق ،فتبدو الرواية على يديه تعبيرًا عن العصر الذي يؤرخه،وبذلك يضيف إلى السرد التاريخي الصرف المناخ الملائم له،وهنا تفتقر رحلة المسعودي إلى عنصر حيوية السرد» .

اتضح بأن أسلوب المسعودي لايخضع لتسلسل المنطقي في عرض الأحداث ،ومع ذلك نجده يصوغها في أسلوب مشوق.

5-السرد في رحلة ابن بطوطة :

جُمعت رحلة ابن بطوطة في كتاب تحت عنوان" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ونقصد بالرحلة هنا « بما قصه الرحالة (ابن بطوطة) وبما أضاف المحرر،فقد نقل إلينا ابن بطوطة في رحلته الطويلية هذه كثيرًا من أحوال المجتمعات التي شاهدها».

احتلت رحلة ابن بطوطة مكانة هامة في الدراسات الأكاديمية ؛لكونها شملت أخبار الأمم والشعوب،ومعارف وعلوم«وقام ابن بطوطة بتقييد رحلته بنفسه ثم تولى ابن جزي بالاختصار،ووضعه في أسلوب جيد،ولم يترك ابن بطوطة بلدًا نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها،وبذلك كانت رحلته معرضًا لحياة الأمم والأقاليم وماتزخر به الرحلة به من أخبار وحكايات غريبة تطبعها بطابع الأسطورة،وتعد رحلات ابن بطوطة متعة حقيقية فكلها حكايات ونوادر وخرافات سمعها وصدقها،وأجمل صفحات هذه الرحلة ماكتبه ابن بطوطة عن نفسه».

وقد سجل ابن بطوطة تفاصيل رحلته الطويلة من ذاكرته،فلم يكن يدون أحداثها كيوميات ..وهو دقيق الملاحظة بارع في وصف ماشاهده ورواية ماسمعه،وإن لم يقف مما رواه موقف الناقد ،فهو جامع أخبار وليس ناقدًا، ولذلك كان موقف الكثيرين من أخبار رحلته موقف المستغرب،ودفع ذلك البعض إلى تكذيبه».

حرص ابن بطوطة على تأدية المعاني ظهر في ابتعاده عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة إلا أنه يلجأ أحيانًا إلى تحسين الكلام باختيار عباراته،وتزيينها ببعض السّجعات، التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد وهنا نشير إلى أن مايهم في الرحلة هو أسلوب صياغة مضامينها ،وكيفية تلقيها من طرف جمهور القراء وقد حاول الوزير ابن جزي جمع ما أملاه ابن بطوطة من قصص في وحدة متماسكة متناسقة جلية واضحة،ويتمثل تدخله من ناحية أخرى في إضافته،وفي إثباته أبياتًا من الشعر له أو لغيره يستشهد بها، وحاول إثبات اطلاعه وقدرته الأدبية،وتطعيمه نص الرحلة ليكسب بهذا التزويق كلام صاحبها حيوية أكثر تقربه إلى النصوص الأدبية».

تجدر الإشارة إلى أنه في رحلة ابن بطوطة نتحدث عن أسلوب ابن جزئ ،الذي قام بكتابة الرحلة بأسلوبه البليغ ،مما أكسب نص الرحلة طابعًا أدبيًا راقيًا بإضافاته وتنقيحاته«ولاحظنا كثرة العناوين في الرحلة وعدم ترتيب سردها أو تنسيقها أمام الفيض الزاخر من المادة، التي يقدمها الرحالة ، وأمام تنوع هذه المادة وعدم ترابطها ،كما أن سرده حوادث هذه الرحلة لم تكن متمثلًا في ذهنه بهدف

إخراجها كتابًا متكامل الجوانب ،بدليل تقطع الحكايات،وعدم اتصال الأحداث فيها باستمرار، ولاحظنا غياب الترتيب في سرد الحكاية وتنسيقها على نحو جيد، وإذا أُخذ على ابن بطوطة اضطراب السرد في تسلسل الحوادث والأزمان، فلاننسى أنه تجشم الأسفار الشاقة».

هناك مآخذ كثيرة على رحلة ابن بطوطة منها عدم الترابط والتسلسل في الأحداث «وأما الطريقة التي اتبعها في التدوين وماطرأ على الإملاء من مشاركة،فمن الصعب أن ترتفع بالأسلوب إلى النمط العالي والتنسيق المدروس ».

ومن عيوب تدوين الرحلة عند ابن بطوطة أنه « لم يتبع في سرد الأحداث ترتيبًا معينًا،ولا لتسلسل الزمني نهجًا معروفًا ..ومن أغرب الطرائف أن يكون ابن جزي نفسه إبى جانب ابن خلدون في عداد من شك بتلك الأمانة،وإذا أُخذ على ابن بطوطة اضطراب السرد في تسلسل الحوادث والأزمان فلا ننسى أنه تجشم الأسفار الشاقة».

ونجد أن عدم إتباع ترتيب معين في سرد الأحداث والأخبار والحكايات هي من العيوب، وحتى وإن فسرنا ذلك بالفارق الزمني بين الرحلة وبين إملائها، ومع ذلك سنظل نعتبر رحلة ابن بطوطة مع كونها صياغة أدبية لروايته حررها ابن جزي «ويتميز أسلوب ابن بطوطة بالبساطة وانسيابية السرد، وتخلو عباراته من السجع والجناس، وأشكال البديع والبيان إلا في المقدمة، ويقل كثيرًا بعد ذلك، ولابن بطوطة لذة خاصة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم،ويسعى دائمًا للتحدث عنهم،وتجلى الحس القصصي عند ابن بطوطة بوضوح في سرد الأحداث واختيارها، وهذا ماجعل من رحلته الأكثر تشويقًا لدى القراء، واثبت من خلالها تفوق الأدباء المغاربة على المشارقة في أدب الرحلة».

لاحظ النقاد تفوق الأدباء المغاربة على أدباء المشرق العربي في تدوين أدب الرحلة، وعدد الرحلات وأسلوب كتابتها الجمالي والفني ،الذي سخر قارئ الرحلات.

6-أهمية نص الرحلة من الناحية الأدبية :

ظهرت القيمة الأدبية للرحلة في شعرية السرد القصصي،فعلى مستوى الأسلوب يتجلى في ماتعرض فيه موادها «من أساليب ترتفع إلى عالم الأدب ،وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني ،برغم مايتسم به أدب الرحلة من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإن أبرز مايميزه أسلوب الكتبة القصصي المعتمد على السرد المشوق،وتكمن القيمة الأدبية للرحلات في ماتعرض فيه موادها من أساليب ترتفع إلى عالم الأديب،وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني،وإذا كان أبرز مايميز أدب الرحلات تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره؛ فإن أبرز مايميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى،والسارد الرحالة وهو ينتج خطابه،يضع في الاعتبار الجسر التواصلي الذي يجب أن يربطه غموض والتباس يخضر بذاكرة السارد وهو يؤسس مسراته السردية».

ومنه إذن نرى بأن الغاية التي ينشدها الدارس من فن الرحلة هي الكشف عن جمالية السرد القصصي فيه والأسلوب الأدبي، الذي دُونت من خلاله، وتكمن أهمية الرحلة في كونها شملت سمات جمالية وفنية مع السرد المشوق .